٤ ـ الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين فى العصر الحاضر

لأبى النصر أحمد الحسينى الهندى

فلسفته

إن كل شىء فى هذا العالم متصف بالفردية ، حتى الحياة أيضاً لا تخلو من ذلك ؛ ولا وجود فى الخارج للحياة الكلية التى ينشدها بعض المذاهب الفلسفية والصوفية ، فالله أيضاً فرد واحد ليس كمثله شىء ؛ وأما الكائنات فهى عبارة عن مجموعة الأفراد ، ولكن النظم ، والنسق ، والتوافق والتطابق الموجودة فيها ليست بنفسها كاملة . ومهما كانت فهى نتيجة سعى الأفراد الغريزى ، وعلى هذا فنحن نتقدم بالتدريج من الفوضى إلى النظام ، ومن النقص إلى الكمال . وعدد أفراد هذه المجموعة غير محدود ولا معين ، فانه يزداد كل يوم ويتضاعف . فالأفراد الحديثو الولادة يشاركوننا بدورهم ويساعدوننا للبلوغ إلى هذه الغاية العظمى ـ الكمال ، ولذلك كان عمل الكائنات غير متناهٍ ، لأنها لا تزال تتدرج فى مدارج الكمال وتترقى إلى ذرى المجد . وعلى أن الكائنات لم تنل الكمال المنشود بتمامه بعد ، وما تفتأ تستنفد وسعها وتفرغ مجهودها فى بلوغه فلا يمكن أن يقال فى شأنها الكلمة الأخيرة ، وما يمكن أن يقال فيها هو أنها ليست بحقيقة كاملة . وعملية الخلق فيها جارية يقوم فيها الانسان بنصيبه ، ويشترك فيها إلى أن يقدر أن يوجد النظام على الأقل فى جزء من فوضاها ؛ والقرآن قد اشار إلى مثل هذا الخلق فى الآية : « فتبارك الله أحسن الخالقين »

فنظرية اقبال هذه فى الانسان والكائنات خلاف ما يراه الانجليز وغيرهم من أتباع مذهب الهيجلية الحديثة أو الصوفية فى مسئلة وحدة الوجود من أن الغاية القصوى لحياة الانسان ونجاتها فى أن تندمج فى الحياة الكلية كما تندمج القطرة فى البحر وتفقد فرديتها

ليست الغاية الأخلاقية للانسان ولا مرمى دينه أن يبيد وجوده باتلاف فرديته وافناء أنانيته ، بل أن يحافظ على فرديته وأنانيته ، وذلك بالحصول على أمثل الصفات وأعلاها التى تجعله فريدا وحيدا . والنبى عليه الصلاة والسلام قد أبانه بقوله : « تخلقوا بأخلاق الله » ، أى اتصفو بصفات الله ، لذلك كلما كانت صفات الانسان أشبه بصفات الله كان فريد زمانه وواحد عصره

أما الحياة فيرى اقبال أنها اسم آخر للفرد . وأسمى صورة لها تحققت إلى الآن هى الأنانية التى بها يصبح الفرد مركزا مستقلا ؛ فالانسان مركز مستقل من كلا الجهتين ، أى الجسمانية والروحانية ، لكنه ليس بفرد كامل . والفرد كلما كان بعيدا عن الله كانت فرديته ناقصة وأحط درجة ، وكلما كان قريباً من الله كانت فرديته كاملة وأرفع منزلة . وليس معنى القرب هذا أن تكون نهايته الفناء فى الله أو الأندماج فيه كما قرره بعض الصوفية والفلاسفة ؛ بل خلافا لذلك هو يجذب الله اليه ، أى يتصف بصفاته وأخلاقه [1] ؛ وإلى هذا أشار اقبال فى بيت من ديوانه « بيام مشرق » التبس مفهومه على البعض ، قال :

« دردشت جنون من جبريل زبون صيدى
يزدان بكمند آور اى همت مردانه !
إن فى صحراء جنونى جبريل صيد تافه
يا همتى الشهباء ائتى فى أنشوطتك بالله . »

يريد به أن الاتصاف بأوصاف الملائكة عنده شىء تافه بل هو يتوخى بهمته الشماء صفات الله

إن الحياة شىء متقدم . هى حركة تجذب الكائنات إلى نفسها بالغلبة على مشاكلها ومعضلاتها العائقة لها عن سيرها وتقدمها ، وجوهر وظيفتها خلق الأمانى والأغراض الجديدة بالاستمرار والتقدم ولصون نفسها قد أوجدت الحياة الوسائل ، أوهى ظهرت طوعاً لشريعة الارتقاء ، وهذه الوسائل هى الحواس الخمس والقوة المدركة التى بها تغلب المشاكل والمعضلات ، وإن كان أكبر العوائق فى طريقها الطبيعة أو المادة ، لكنها فى ذاتها ليست بشر ، إذ هى تمكنها من إبراز قواها الخفية واستعداداتها المكنونة

(١) وقد ورد هذا المعنى فى حديث صحيح رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قال : . . . . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . . . الخ وهو خلاف الفناء والاندماج

إن الأنانية حينما تستولى على المشاكل والمعضلات ويبين شأوها عليها تنتقل من الجبر إلى الاختيار فانها إلى حد ما مُجبرة وإلى حـد ما مختارة كما ورد فى الأثر أن « الايمان بين الجبر والاختيار » ، ومتى نالت النهاية القصوى من زلفى الانانية العظمى (أى الله) التى ليس كمثلها شىء فى الحرية والاختيار تمتعت بأقصى مدى من الاختيار والحرية ، وعلى هذا فالحياة عبارة عن الجهد المستمر للوصول إلى ذلك المدى من الاختيار والحرية

قلنا إن مركز الحياة فى الانسان الأنانية التى تملى شخصيته على صفحة الوجود ، والشخصية هذه عبارة عن حالة الجهـد المستمر ، فاذا احتفظ بتلك الحالة ، بقيت الشخصية ثابتة البناء مشيدة الأركان ، وإذا فقدت ، ضعفت قواعدها وانتكثت مرائرها ، وبما أن الشخصية أو حالة الجد المستمر أبعد الغايات للانسان وأثمنهـا ، فينبغى له ألا يدعها ترث قواها فتضعف ، وتنحل عراها فتفنى . لأن بقاءها هو الذى يسبغ عليه الدوام والخلود ، ثم فكرة الابقاء هـذه تعطى له أيضاً معياراً للخير والشر أو الحسن والقبيح . فان كل ما يقويها خير وحسن ، وكل ما يضعفها شر وقبيح ، سواء أكان من نوع الفن [1] أم الدين أم الأخلاق

على ضوء هذه الآراء انتقد اقبال فلسفة أفلاطون فدحض حجج جميع المذاهب الفلسفية التى تعتبر غاية الانسان الموت بدل الحياة ، فتلقنه الجبن والوهن وذلك بحمله على الأعراض عن المادة التى هى أكبر العوائق فى طريق حياته ، والابتعاد عن مقاومتها ، مع أن جوهر الانسانية فى الاستيلاء عليها واستخدامها لنفسها بالبطولة والفحولة [2]

وكما أن الاستيلاء على المادة ضرورى لنيل الحرية والاختيار كذلك الغلبة على الزمن لازمة للحصول على الخلود والدوام ؛ و(برجسون) قد علمنا أن الزمان ليس الخط اللامتناهى (فى مفهوم الخط المكانى) الذى لابد أن نجتازه سواء رضينا به أم لم نرض . ولكن هـذا المفهوم للزمن ليس بصحيح فان مفهوم الزمن البحت لا يشمل مفهوم الطول

إن الخلود غاية الانسانية وأمنيتها ، يحوزه كل من يسعى لذلك ، وحيازته تتوقف على تلك الأعمال والأفكار من حياتنا التى تقدر أن توطد أساس الانانية على حالة الجد المستمر وتشيد أركانها ، فديانة بوذا وتصوف إيران وأمثالهما من نظريات فلسفة الأخلاق لا تصلح لمأربنا وإن احتوت على بعض الفوائد وهو أننا بعد اجهاد أنفسنا واستغراق وسعنا بالاستمرار نحتاج إلى راحة قليلة لتجديد قوانا ، فكأن تلك الطرق للأعمال والأفكار كالليالى لأيام حياتنا

وعلى كل حال فمتى تمكنت أعمالنا وأفكارنا من توطيد حالة الجد المستمر فى الأنانية ، فالأرجح أن الموت لا يؤثر عليها ، بل محتمل أن تكون الفترة بين حياتنا الحاضرة وحياتنا الأخرى هى فترة الراحة ، وتلك الفترة هى التى عبر عنها القرآن بعالم البرزخ الذى يبقى إلى يوم البعث ، فتلك الأنانية وحدها يمكن ألا تتأثر من الموت وتخرج من الفترة فائزة ، التى قد اعتنت بالحياة الحاضرة اعتناء جيداً ، وإن كانت الحياة تأبى الاعادة والتكرار فى مدارج الارتقاء ، ولكن على حسب مبادئ فلسفة برجسون ، كما يقول لنا الأستاذ ولدن كار ، حشر الأجساد أيضاً فى حيز الامكان التام . إننا نوزع الزمن فى اللمحات لذلك نربطها بالمكان فيصعب علينا عبره ، ولكننا ندرك حقيقته حين نغوص فى أنفسنا لأن الزمن الحقيق هو حياتنا ، تلك التى توطدت فيها الأنانية بحالة الجـد المستمر ، اننا محكومون بالزمن إلى أن نراه مربوطاً بالمكان ، إن الزمن المقيد بالمكان سلسلة لفتها الحياة حول نفسها لتجذب ما حولها إلى نفسها ، وإلا فنحن مجردون عن الزمن ، وهـذا التجرد يمكن أن نشعر به حتى فى حياتنا الحاضرة وإن كان لدقيقة

إن الشىء الذى يقوى الأنانية هو العشق فى مفهومه المطلق ومعناه جذبك الشىء أو طلبك إياه لتجعله جزءاً من نفسك ، وأسمى صورة له هو ما يمكّن صاحبه من خلق القيم والغايات ، ويدفعه إلى السعى فى تحقيقها وبلوغها ، ثم العشق يجعل العاشق فريداً كما يجعل المعشوق ، وذلك أن طلب الفرد المعين الأوحد يوجد شأن الانفراد فى الطالب عن غيره كما يوجد فى المطلوب ، فانه لا شىء غيره يرضى طلب الطالب ، وكما أن العشق يقوى الأنانيـة ، كذلك الاستعباد يضعفها ، فكل شىء نيل بغير المجهود الشخصى هو من قبيل الاستعباد ، فالابن الذى يرث

(١) وقد لخصنا رأيه فى الفنون وللاهى فى حاشية مقالنا السابق فراجعه

(٢) وفى القرآن : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وغيرها من الآيات تفيد هنا المعنى

ثروة أبيه من دون مجهوده الشخصي مستجدٍ ، ومثله ذلك الذي يفكر بفكر الآخرين ويرى برأي غيره . وبناء عليه ينبغي لنا أن نوجد ونربي في أنفسنا العشق أي قوة الجذب ونجتنب جميع أنواع الاستجداء ، وإليه أشار اقبال في بيت ترجمته :

« إن الملكة التي لم تشتر بالقلم
هي عار على المسلم »

بقي أن نسأل كيف نوجد العشق ، فيقول اقبال : إن للمسلمين على الأقل في حياة النبي عليه الصلاة والسلام رداً على ذلك ، فانه عليه الصلاة والسلام قد وضح بأعماله وحياته ما هو العشق ، وكيف يمكن القيام به ، لذلك ينبغي للمسلمين أن يختاروا حياته عليه الصلاة والسلام أسوة لأنفسهم وأن يحبوه ، وإليه أشار اقبال في بيت قال :

« هركه عشق مصطفى سامان اوست
بحر وبر در كوشه دامان اوست
كل من يكون متاعه عشق المصطفى
يكون البحر والبر في طرف ذيله »

ان الأنانية في صعودها إلى فروع العلى ، وبلوغها إلى رفعة الكمال حيث تتمتع بفردية كاملة بنيل ذاتي الأنانية العظمى لابد أن تجتاز ثلاث مراحل : مرحلة الخضوع للشريعة ، ومرحلة ضبط النفس وهي الصورة العليا للشعور الذاتي ، ومرحلة الخلافة الالهية

في مرحلة الخضوع يفسر لنا اقبال أنه للتقدم لابد من مسلك يسلك ، ومن مشرع يورد ، ومن قانون يخضع له . لذلك كل من يصبو لمعارج الكمال ، ويطمح إلى سنام المجد ينبغي له أن يطيع الشريعة . وفي بيان مرحلة ضبط النفس يقول اقبال إن النفس الانسانية لأمارة بالسوء ، فهي معجبة بذاتها ، أبية ، عنيدة ، لا تهتم إلا بأمر نفسها . لذلك هي محتاجة إلى الضبط والتهذيب . خير طريق لذلك هو إقامة أحكام الشريعة . فالصلاة تنقذها من الفحشاء والمنكر ، والصوم يقتل غلمتها وترفها ، والحج يذيقها لذة الهجر ويخفف عنها سلطان الحب للوطن ويضمها إلى الاجتماع الاسلامي العام فيجعلها تشعر بجنسية الاسلام ، والزكاة تبيد حبها للمال وتعلمها المساواة

أما الخلافة الالهية فهي النهاية القصوى للتقدم الانساني على سطح الأرض ، هي الأنانية الكاملة والغاية العليا للانسانية ، وقمة الحياة من حيث العقل والجسم . ففيها يتحول تشتت الأفكار في الحياة الذهنية واختلافاتها وتنافرها إلى التناسق والتوافق ، فتقدر حينئذ على حل جميع العقد المنيعة المطلب والصعبة المرام . هي ملتقى الكمال للعلم والقوة ، ونقطة الاتصال بين الفكر والعمل ، والعاطفة والعقل . ومن استحقها كان آخر ثمرة لدوحة الانسانية ، وظهوره يبرر جميع آلام الارتقاء ومحنه لأنها كانت قائمة لأجله . هو يكون حاكماً حقيقياً على البشر وحكومته تكون حكومة إلهية على الأرض . هو يصبغ من خصب طبعه على الآخرين بحبوحة الحياة ويقربهم إلى نفسه . فكلما يتقربون إليه تتدرج حياتهم في مدارج التقدم والكمال

إن بلوغ الانسانية إلى أقصى مدى من التقدم عقلاً وجسماً شرط ضروري لولادة ذلك المستحق للخلافة . لذلك كان وجوده في الحال في عالم المثال ، ولكن تقدم الانسانية سائر إلى إنتاج طبقة الأفراد المتفردين في أوصافهم الحميدة قلة أو كثرة ؛ فهؤلاء سيكونون أجداده

أما الحكومة الالهية فمعناها الديموقراطية المكونة من الأفراد المتفردين في أوصافهم الحميدة قلة أو كثرة برأسهم الفرد الوحيد الذي لا نظير له على وجه الأرض . كانت أشباح هؤلاء الأفراد تجول في فكر الفيلسوف الألماني نيتشه ؛ ولكن إلحاده وتعصبه الأرستقراطي شوهها تماماً (١)

هذا ما عن لنا من فلسفة إقبال الآن ؛ وسنقدم إليك معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب في المقال الآتي إن شاء الله

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

(١) إن الدكتور إقبال قد وضح منذ عشرين سنة الفرق بين ديموقراطية أوربا وديموقراطية الاسلام في مجلة العهد الجديد ؛ ونحن نلخصه هنا قال :

« إن ديموقراطية أوربا للورقة بأظلال الشيوعية والخيفة يخاوف الثورة نشأت في الحقيقة من التجديد الاقتصادي لهيئات الاجتماعية الأوربية . ولكن نيتشه على كل حال ينكر حكومة الجماعة مثل هذه ويقنط من عامة الناس ، ويؤسس جميع التقافات العالية على ظهور وتقفيف سيرمان (أي ما فوق البشر) ؛ ولكن هل العامة حقيقة موضع القنوط ؟

إن الديموقراطية الاسلامية لم تنشأ من تمدد الفرص الاقتصادية ، بل هي مبدأ روحاني مبناه الاعتراف بأن كل إنسان مركز للقوى الخفية التي يمكن أن تكشف إمكاناتها بتربية طراز خاص من الأخلاق والسجايا . وبناء على ذلك فالاسلام قد خلق من عامة الناس المثل العليا من الحياة والقوة . أو ليست إذن الديموقراطية الاسلامية في القرون الأولى دحض عملي لأفكار نيتشه ؟ »